الشجرة الكبيرة

الشتاء ينسحب هادئاً بطيئاً محدودب الظهر راعش اليد، والربيع يقدم في اندفاعة وإقبال طلقاً متفتح في حيوية وشباب.

يمسك الجد العجوز يد حفيدته، يمضي بها إلى حديقة المنزل، يده المعروقة الراعشة تمسك بيدها البضة الناعمة، وهو لا يدري، أحفيدته تقوده أم هو الذي يقودها؟ وعلى كرسي صغير يقعد، قريباً من شجرة تفاح كبيرة، تغمره الشمس بدفئها الناعش، وهو يرسل نظره وراء حفيدته، وقد مضت تعدو من ركن في الحديقة إلى ركن، تقطف زهرة من هنا، وتلتقط زهرة من هناك، تطارد فراشة ترف بجناحيها الزاهيين المتألقين في الشمس الساطعة، تحاول الإمساك بعصفور يحط قريباً منها، ولكنه ما يلبث أن يطير.

وترجع إلى جدها، تعدو، لتضع تحت أنفه بيديها الصغيرتين زهرة صغيرة، وهي تسأله:

ـ ما اسم هذه الزهرة يا جدي؟

ـ هذه زهرة التفاح.

وتنظر إلى الزهرة مدهوشة، ثم تقول:

ـ ولكن لم أعثر عليها هنا تحت هذه الشجرة التي تقعد أمامها، أنا عثرت عليها هناك، تحت تلك الشجرة.

وتشير إلى شجرة صغيرة في أقصى الحديقة.

ويرد الجد:

ـ وهل نسيت؟ لدينا شجرة تفاح هنا كبيرة، وشجرة صغيرة هناك.

وتنظر إلى الشجرة الكبيرة التي هي أمامها، تتأمل أغصانها والفروع، ثم تسأل:

ـ ولكن، لا أرى فيها أي زهرة، وتلك الصغيرة حافلة بالزهور، لماذا يا جدي؟

تحجب الشمس غمامة سوداء كثيفة، تثور في الهواء هبة ريح باردة قوية، تتساقط زهرات هنا وهناك، تفر العصافير إلى أعشاشها.

ـ هي لا تزهر يا بنتي ولا تثمر، لأنها عجوز شائخة.

تلف حول جذع الشجرة الكبيرة، ضفيرتاها الشقراوان تتأرجحان، ترجع إلى الجد لتسأل:

ـ مادامت لا تزهر ولا تثمر، فلماذا لا تقطعها، يا جدي؟

تدلهم العتمة، تعصف ريح غاضبة، يومض برق حارق، يدمدم في الآفاق قصف رعد متصل، تسقط بضع حبات من المطر، يتكلم الجد:

ـ ولماذا نقطعها؟ هل نسيت؟ كم لعبت في ظلِّها صيفاً، كم علقت فيها من الأراجيح؟ وفي كل صباح تستيقظين على زقزقة العصافير وهي تتقافز على أغصانها، وما تزال تحنو عليك، تمنحك الظل والخضرة.

الرعد ما يزال يقعقع، هبات قوية من الريح تتلاحق، وينهمر المطر.

ينهض الجد، يتدثر بمعطفه، بيده الراعشة يمسح حبات المطر عن وجه حفيدته، يغطيها بطرف معطفه، يمضي بها إلى الداخل. في كرسي عريض يقعد، أمام الموقد، يعقد يديه على صدره، ويغمض عينيه.

ـ لو رأيتها قبل بضع سنين، كانت أجمل أشجار الحديقة، وأكثرها عطاء، أغصانها تنحني حتى تبلغ

الأرض من فرط ما تحمل من ثمار، وفي الربيع هي عروس في حلة الزفاف البيضاء.

ترجع الحفيدة إلى الحديقة، تعدو من ركن إلى ركن، شعرها يبتل، ثيابها تتندى، وهي تجمع الزهرات تحت المطر.